

قراءة في كتاب

الدين والإعلام في سوسيولوجيا التحولات الدينية

ياسين حكان

باحث في علم الاجتماع، جامعة ابن زهر، أكادير.

17 نونبر 2022



ملخص:

يروم هذا الكتاب إلى تقديم تفسير علمي لسياق نشوء الإعلام الديني في الوطن العربي، موضحا العلاقة الجدلية التي تربط بين حقلي الدين والإعلام، ومبرزاً أهمية ربط النظريات السوسيولوجية المعاصرة بالحقل الديني، نظراً لما يشهده هذا الأخير من تحولات عميقة وجوهريّة تمس مختلف جوانب الحياة، بالموازاة مع بروز فاعلين جدد في الحقل الديني، وما يشكله هذا من خطورة على المجتمعات العربية الإسلامية، خصوصاً أن الفتوى أصبحت في متناول الجميع، وذلك بسبب الاستخدام المفرط لوسائل التواصل الاجتماعي، مع انتشار ما يسمى ظاهرة الدعاة الجدد.

كلمات مفتاحية:

الدين، الإعلام، الدعاة الجدد، التدين الفردي، الأنترنت، سوق الفتوى، الاقتصاد الموسيقي.

Summary:

This book aims to provide a scientific explanation of the context of the emergence of religious media in the Arab world, explaining the dialectical relationship between the fields of religion and the media, and highlighting the importance of linking contemporary sociological theories to the religious field, given the deep and fundamental transformations that the latter is witnessing affecting various aspects of life, in parallel with the emergence of new actors in the religious field, and the danger this poses to Arab Muslim societies, especially that the fatwa has become in the hands of everyone, due to the excessive use of social media with the spread of the so-called phenomenon of new preachers.

Keywords: religion, media, new preachers, individual religiosity, internet, "fatwa" market, Economy of Music.



صدر للباحث المغربي في علم الاجتماع الدكتور رشيد جرموني عن دار القرويين للنشر والتوزيع كتابا في طبعته الثانية - في 196 صفحة من الحجم المتوسط - المعنون ب: "الدين والإعلام في سوسيولوجيا التحولات الدينية" (1) وذلك في شهر ماي، 2022، وهو في الأصل تنقيح لطبعة أولى صدرت سنة 2019 عن مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية (كتاب الفصل العدد 28)، حيث اشتملت الطبعة الحالية على إضافات جديدة تضمنت بخصوص دراسة بعنوان: (الاقتصاد الموسيقي، الأغنية الدينية نموذجا)، مع توسع أكبر في المراجع. نبذة عن المؤلف والكتاب:

الكاتب هو الدكتور رشيد جرموني، باحث أكاديمي وكاتب مغربي، حاصل على دكتوراة في علم الاجتماع من جامعة محمد الخامس بالرباط، يعمل حاليا أستاذا لعلم الاجتماع بجامعة مولاي إسماعيل بمكناس، وهو عضو الجمعية العالمية لعلماء الاجتماع (إسبانيا/ مدريد)، يعتبر من أهم الباحثين في حقل سوسيولوجيا الأديان في المغرب والعالم العربي، حيث أنجز عدة بحوث ودراسات في هذا الميدان، علاوة على أن أطروحته لنيل الدكتوراة، كانت تحت عنوان: (الشباب والتدين بالمغرب): "الشباب وتحول القيم والاتجاهات والممارسات: دراسة سوسيولوجية بعمالة سلا".

يضم الكتاب 196 صفحة من الحجم المتوسط، يحتوي على مدخل عام وستة فصول، مع ملاحق خاصة بالجداول والمعطيات الإحصائية، كما أن الكتاب قدمه عالم الاجتماع الفلسطيني ساري حنفي، حيث وصف الكتاب بأنه من الكتب القليلة التي تناولت الموضوع بعمق فكري وبفهم أكثر واقعية لما يعتمل في العالم العربي من تحولات عميقة في الحقل الديني.

على سبيل الاستهلال:

استهل الباحث كتابه بمدخل عام، يحمل عنوان: "الأديان في العالم المعاصر... قراءة في المشهد الديني بمنطقة العالم العربي - الإسلامي"

يعد الكتاب من بين الكتب المهمة التي تحاول تقديم تفسير علمي لسياق نشوء الإعلام الديني في الوطن العربي، وتبيان العلاقة القائمة بين الإعلام من جهة والدين من جهة ثانية.

وتبدو أهمية الكتاب في سياق صدره، إذ خرج إلى الوجود في ظرف عرف بمجموعة من التحولات التي مست مختلف مناحي الحياة الاجتماعية، بما في ذلك الحقل الديني، حيث تميز السياق العام بتحويلات عميقة عرفتها حركات الإسلام السياسي، وظهور فاعلين دينيين جدد نتيجة الانتشار الواسع لوسائل الاتصال والتواصل كالقنوات الفضائية الدينية، التي أصبحت تشكل وسيلة أساسية في عملية التنشئة الدينية للأفراد. بالموازاة مع المؤسسات الدينية التقليدية التي بدأت تفقد مكانتها، إذ مع ظهور الأنترنت وثورة الأنفوميديا حسب تعبير ألفين توفلر (2)، الذين أصبح كمنصات مهمة لإنتاج وتسويق المحتوى الديني، لذا من الضروري بمكان، التوقف عند ما يسمى "الإعلام الديني"، وما يمارسه من تأثير على الشباب في تمثل الدين كنص مقدس، والتدين كممارسة وسلوك ثقافي.



ويأتي هذا الكتاب كدراسة ميدانية، منطلقاً من معطيات إمبريقية تهتم الحقل الديني بالمغرب، مع استحضار الباحث لمجموعة من الدراسات والأبحاث والتقارير عن حضور الإعلام الديني بالوطن العربي، ويتضح من خلال هذه الدراسة، مدى تمكن وإمام الباحث بالمنهج الكمي والكيفي، كما أن الباحث لم يدع تقديم كل الأجوبة الممكنة حول الموضوع بقدر ما تمثل مساهمة جادة لسبر أغوار الدين والإعلام كموضوع شائك، ولاستثارة الباحثين للالتباه لظواهر أخرى تتصل بحقلي الدين والإعلام.

ويناقش الباحث في المدخل (3)، وضع الأديان في العالم المعاصر، تفاعلاً مع جدلية إزالة السحر وعودته، إذ نجد في الأدبيات السوسيولوجية الكلاسيكية مع كل من مؤسسي السوسيولوجيا أمثال كارل ماركس، إيميل دوركايم، وأوغست كونت، وبالتحديد مع ماكس فيبر، حيث عبروا بشكل صريح عن حصول "أفول للدين" أو ما سمه ماكس فيبر عبر مفهومه الجدلي: "بإزالة السحر عن العالم" (Désenchantment du monde) (4) مع ما رافق ذلك من تقسيم العمل وبروز التمدن والانفجار المعرفي وما صاحبه من تطور صناعي وثورة تكنولوجية، إلا أن ما يشدك في البحث هو ما تقدم به الباحث من نقاش منهجي ونظري عندما تحدث عن "عودة السحر للعالم" (5) بمعنى "العودة" إلى الدين أو "اللجوء" إلى الدين مع ما شاهده العالم من تحولات عميقة خاصة في الحقل الإعلامي، إذ تمت العودة إلى الدين بأنماط جديدة وأشكال مختلفة وذلك حتى في المجتمعات التي يقال عنها "علمانية" أو "لائكية"، مع أن الدين في المجتمعات العربية الإسلامية مازال هو المؤطر الأساسي للبنيات الثقافية والاجتماعية ولمجمل الذهنيات.

ويقدم الباحث ملاحظات وتفسيرات مهمة تتصل بسياق التحولات الدينية التي بصمت العالم العربي - الإسلامي، وهي أربع عناصر؛ (نزع القداسة عن المؤسسات الدينية) و(الانتقال من المطلق إلى النسبي) و(التدين الفردي) و(بروز نزعة استهلاكية دينية).

وفيما يخص نزع القداسة عن المؤسسات الدينية، وخير دليل على ذلك هو "بروز حركة فردانية، تتجاوز عقلية الاحتكار والوصاية والاستبداد وعدم القدرة على استشراق المستقبل" بالتزامن مع تراجع حركات الإسلام السياسي وموجة التحرر الفردي، ومعنى ذلك، أن التدين أصبح يتخذ أنماطاً وأشكالاً جديدة أكثر تحراً وفردانية، بالمقابل مع تراجع دور المؤسسات الدينية التقليدية لصالح فاعلين جدد، وأهمهم الإعلام الديني.

وثانياً، الانتقال من المطلق إلى النسبي، بحيث أكد الباحث على ظهور ما سماه بالمقولات النسبية تجاوزاً لكل المطلقات أو السرديات الكبرى حسب تعبير بعض الباحثين (6)، إذ أن الشباب أصبح أكثر انفتاحاً مع رفض التصورات الانغلاقية والمتوقعة حول الذات، وأضحى الجيل "الناقم" من الشباب يستخدم مفاهيم عالمية بنفحة إسلامية كمفهوم "الجهاد الإلكتروني" و "الإسلام الديمقراطي" و "النسوية الإسلامية" و "المسلم المعاصر" نكايه في المفاهيم القديمة التي أطرت حركات الإسلام السياسي أو المؤسسات الرسمية كالمجالس العلمية والوزارات أو المدارس، ويتضح أن الأمر يتعلق بتغير جوهري ونوعي في المرجعيات الموجهة للحقل الديني.

وثالثاً، ظهور أنماط جديدة من التدين، كنتيجة للعنصرين السابقين (نزع القداسة عن المؤسسات الدينية) و(الانتقال من المطلق إلى النسبي) حيث برز التدين الفردي كشكل من أشكال تمثل الدين باعتباره تديناً يقوم على

إسقاط كل المرجعيات الدينية التي كانت سلطة دينية في وقت سابق، كالمسجد والأسرة وغيرها من المؤسسات الدينية الرسمية منها وغير الرسمية ليكون "المسلم، خصوصاً الشباب، يصبح مرجعاً لنفسه في الاستمداد والتلقي والممارسة والتوجيه والسلوك والتمثل". (7)

والعنصر الرابع يتعلق بالتحولات الكبرى التي حدثت في المنطقة بمرور نزعة استهلاكية دينية كنتيجة حتمية للتشبع بقيم براغماتية، إذ تجلت فيما يوفره "السوق الاقتصادي من إمكانيات هائلة لتسويق المنتجات الثقافية والرمزية بما فيها الدين عبر مدخل الإعلام الديني عبر تكييف" العرض الديني مع التوقعات الحقيقية والمحتملة لجمهور مستهدف بدقة" حيث أصبح الخطاب الديني ينبنى على التيسير والترخيص بدل التشدد، بحيث أشار الباحث إلى ظهور نوع من التطرف الديني والعنف واللاتسامح.

وقد عمل الباحث على توضيح دقيق لمفهوم الإعلام الديني، بالوقوف على تفاصيل سياق ظهوره في الغرب والعالم العربي، مقدماً ملاحظة مفادها أن سياق ظهور الإعلام الديني في الغرب كان موافقاً لنتج عن ضرورة أملتها طبيعة التطورات السوسيوثقافية والتكنولوجية التي حدثت هناك، مقارناً بذلك نشأته في المنطقة العربية، التي تتسم - حسب الباحث - بنوع من الضبابية والتنزيل المفاجئ الذي لم يلتزم بالمسارات التي يجب المرور منها لميلاد هذا النوع من الإعلام.

ومن تبعات الإعلام الديني، التي وصفها الباحث بالخطيرة، أنه أسهم بشكل واضح في تراجع دور المؤسسات الدينية التقليدية، إذ سحب البساط منها حيث أضحت يتحكم في إنتاج وإعادة إنتاج القيم الدينية ومن ثم ينفلت من رقابة الدولة، ويخدم أيديولوجيات معينة، ما أتاح الفرصة لظهور ما يسمى "بالدعاة الجدد" بحيث يمثلون حركات ما بعد الإسلامية، ووجدوا في قنوات الإعلام الديني منصة مناسبة ومجالاً خصباً للدعوة ونشر المعلومات الدينية بشكل يخدم أيديولوجياتهم ويتناسب معها.

بهذا المعنى، تمثل ظاهرة "الدعاة الجدد" تحول التدين في المجتمعات العربية الإسلامية، من التدين الجماعي المنتمي إلى مؤسسات دينية سواء تقليدية أو حديثة (حركات الإسلام السياسي) إلى تدين فردي منفصل من كل تقييدات واشتراطات معينة.

وللتعمق أكثر في الموضوع، عزز الباحث عمله بدراسة ميدانية حول الشخصيات الدعوية الأكثر تأثيراً في الشباب المغربي، خلص من خلالها إلى حجم التأثير الخطير الذي تمارسه هذه الشخصيات على الشباب، وكنيجة لذلك، تتشكل لدى الشباب هوية دينية مشوهة، كما يفسر الباحث سبب الإقبال الكبير على هؤلاء الفاعلين الدينيين الجدد بطبيعة خطابهم الدعوي الذي ينهل من المزج بين قيم الإسلام وقيم الحداثة، مضيفاً إلى كون لغتهم تبدو بسيطة وفي متناول الجميع وقريبة من اهتمامات الشباب، إذ أنهم ينهلون من بعض مفاهيم التنمية البشرية كالاعتماد على الذات، ما جعل التوجه الجديد يعمق من الفردانية ويركز على الفرد بدل الجماعة، ما أفرز انفصاماً واعتزلاً سيكولوجياً واجتماعياً في البنيات الذهنية والثقافية للشباب.

ومن بين انعكاسات الإعلام الديني، التي توقفت عندها الباحث هي التحولات التي مست الإعلام الديني في علاقته بالمجال الافتراضي، فقد أصبح الأنترنت مصدراً للمعلومة الدينية بنسب متفاوتة أحياناً بين الشباب، ما أسفر عنه



من تحولات جذرية مست المشهد الديني من خلال ظهور "الفتوى الإلكترونية" و"المفتون الجدد"، الشيء الذي سبب جدلا واسعا وفوضى كبيرة في مجال الفتوى بحيث أصبحت محتكرة من قبل هؤلاء الفاعلين الدينيين الجدد، مما خلف ردود فعل مؤسساتية من قبل الدولة بغية الإمساك بزمام الأمور سواء بالحضور الرسمي على العالم الافتراضي أو عن طريق إنشاء مدونات خاصة تابعة لها.

والجدير بالذكر، أن هذه التحولات قد خلقت جدلا واسعا في أوساط المهتمين بالحقل الديني، وتم طرح إشكال أية علاقة تربط الواقعي بالافتراضي؟ فهناك من اعتبر أن استخدام "توصيف الفضاء الطارئ في مقابل الفضاء الفعلي" مرده لجملة من الأسباب، وتأخذ منها على سبيل المثال لا الحصر سياق المجتمع الشخصاني الإلكتروني وليس الواقعي، وارتباطه بالدعاة الجدد، بحيث أنه في هذا الفضاء، تكثر مطالبة الدعاة للعامة بإحداث تغييرات حقيقية في أنماط تفكيرهم وسلوكهم وتعاملاتهم، ويكون ذلك في معزل عن البحث في التحولات الفعلية لبنية المجتمع التحتية" مما يفسر أن هناك تعارضا ما بين الواقعي والافتراضي، يتجلى في عدم الأخذ بعين الاعتبار السياق الاجتماعي والثقافي والظرفية السوسيو تاريخية من طرف الدعاة الجدد، مما يخلق نوعا من الفوضى بحيث أن كل من له القدرة على جعل المجتمع الافتراضي منبرا لإسداء النصيحة والدعوة إلى التغيير دون أن يعرف كيف ستتم العملية، مما سيؤدي إلى خلق هوية دينية جديدة مضطربة ومشوهة وهجينة.

بالإضافة إلى تطرقه الأغنية الدينية أو ما يمكن أن نسميه -حسب الباحث- الاقتصاد الموسيقي، حيث تناول في هذا الفصل، جدلية الفن والدين لدى المسلمين، مع ذكر سياق ظهور الأغنية الدينية في المجتمعات العربية الإسلامية، بالموازاة مع الغوص في الدلالات السوسيولوجية للأغنية الدينية وتفكيك مورفولوجيتها، مع التركيز على الإشارة إلى عناصر التحول في هذا النمط من الغناء، وكيف أن حركات الإسلام السياسي بمختلف أنواعها عملت على إعادة إنتاج المواقف نفسها من الفن بشكل عام والموسيقى والأغنية بشكل خاص، وفسر الباحث سياق ظهور البوب الإسلامي حيث أنه صالح الشباب المسلم مع الأغنية الدينية، وأصبح سوقا كبيرة للاستهلاك في ظل ما تعيشه المجتمعات العربية من تحولات عميقة.

وأبسط مثال على ذلك، الانسلاخ والاغتراب الذي تحدته شبكات الأنترنت كالمحولين دينيا بحيث يعتمدون بشكل أساسي على الشبكة العنكبوتية كمصدر للمعلومة والفتوى، فيتم تمرير معارف دينية "غير منسجمة مع السياق الثقافي، ولا حتى السياق الذي تطبق فيه مبادئ الدين وأحكامه" الشيء الذي يجعل هؤلاء فريسة في يد التنظيمات الإرهابية يشكلونهم وفق تطلعاتهم وأيديولوجياتهم.

وفي مقابل هذا التصور، الذي يفصل بين الواقعي والافتراضي، نجد توجهها آخر يرى أن العالم الافتراضي هو امتداد في آن ومزيج بينه وبين الواقع في الآن ذاته، مما يؤكد قدرة الحياة الواقعية للفاعلين الدينيين على التأثير فيما يتم تداوله على شبكات الأنترنت، "وهذا لا يجعل من مواقع الإفتاء الإلكترونية تحولا جذريا وبنويا في السلطة الدينية، بل هو مجرد تكيف يصون حقيقة المؤسسة التشريعية والجمهور المسلم نفسه، فهو لا يزال مشدودا إلى بيئته الواقعية بأواصر متينة على الرغم من انخراطه في عالم افتراضي".

على سبيل الختم:



إن كتاب: "الدين والإعلام في سوسولوجيا التحولات الدينية" يضعنا أمام تساؤلات وإشكالات تتعلق بتدبير الدين في المجتمعات العربية الإسلامية وعلاقته بالإعلام، بحيث تبدو نظرة الباحث شمولية تنطلق من رؤية سوسولوجية، تنتصر للفرد الذي يحمله كامل المسؤولية في تعامله مع الأنترنت ومع الاستهلاك الرمزي للدين من خلال ما تفرزه التقنية من معلومات دينية، بهذا المعنى، فالباحث لا ينتصر للحتمية التكنولوجية باعتبار أن منزلقات التقنية والأنترنت لا تتعلق بالمشكل فيها بقدر ما تتعلق بتصرفات الفرد وتعاملاته معها.



المراجع:

- (1) رشيد جرموني، "الدين والاعلام في سوسيولوجيا التحولات الدينية"، دار القرويين للنشر والتوزيع، ماي 2022.
- (2) ألفن توفلر، "تحول السلطة: المعرفة والثورة والعنف على أعتاب القرن الحادي والعشرين" ترجمة: (لبنى الريدي)، الهيئة المصرية للكتاب: القاهرة 1995.
- (3) رشيد جرموني، "الدين والاعلام في سوسيولوجية التحولات الدينية"، دار القرويين للنشر والتوزيع، ماي 2022، ص: 7.
- (4) Marchel Gauchet, « Désenchantement du monde : une histoire politique de la religion », édition, céres;(Maghreb, 1995) éditions Gallimard, 1985, Tunis.
- (5) David Ray Griffin, « Introduction: the Reenchantment of Science, Postmodern Proposals (New York, State University of New York Press, 1998).
- (6) Touraine Alain, (1992), Critique de la Modernité, Editions Fayard, Paris.
- (7) رشيد جرموني، "الدين والاعلام في سوسيولوجية التحولات الدينية"، دار القرويين للنشر والتوزيع، ماي 2022، ص: 33.